جدود

(1)

دعوني اليومَ أقُصُّ عليكم قصةً لطيفةً ماتعةً جميلة، تعبقُ بكلِّ وشوشاتِ الماضي وتجلِّياته، حُنوِّه وملاطفاتِه. قصتي؛ عن خشخشاتِ الصفصافةِ تداعبُها ريحُ الشمال فتميلُ معها تارةً تلين، وتارةً تتسامى في عليائها لا يطالها مدُّ البصر، عن نداءات البرتقال والليمون من أقاصي الأرض: هلمَّ إلينا، تعال. عن دلالِ أشجار المانجو والدُّراق وتأرجحهما في الكفِّ ملكَ اليمين. عن الأسمرِ الحُلو القادم من بلاد النِّيل، ذي العيون العسلية الضاحكة التي لا تفترُ ثرثرةً وحبَّاً وطيبة، يُلاغيك كلُّ ما فيه، فلا تملكُ مع هذا الدَّفق الفطري الحار إلا أن تهيمَ به طوعاً، وبدون أيَّ سابقِ إنذار. صاحبُنا الحليوة الطَّموح قررَ أن يجرِّبَ حظَّه في بلد الخيرات الجزال، التي تفيضُ أنهارُها لبناً وعسلا. توكَّلَ على الله ربِّه، عزم الأمر وأعدَّ للأمر عدَّته، حيث حلَّت به رحالُه إلى أرض الرِّسالات. والتجارةُ يا صحب.. شطارة، وصاحبنا حذِقٌ ماهرٌ حلو المعشر طلقُ اللسان، سرعان ما انتعشت تجارتُه، وتوافدَ عليه النّاس يطلبونه بالاسم. وللنَّجاح – كما تعلمون يا سادة – ضريبةٌ لابد مدفوعة، ومع صاحبنا كانت ضريبته أن ألهته أموالٌ وقَبول عن سني عمرٍ تمضي وما من أنيسٍ يأتي بالوريث. مضت الأيام رخاءً وخيراً وفيرا، وما انتبَه صاحبنا إلا على مُضاربٍ جديد، انقسمت زبائنُه على إثر وفودِه قسمين، منهم من لازم صاحبنا زبوناً لا يرتضي غيره، ومنهم من غادرَ إلى الجديد. والسوقُ فيه متسع، والخيرُ كثيرٌ أعم، وصاحبنا الحاذق أبى على نفسِه إلا أن يتعرَّفَ على هذا الجديد، ويجلوَ سرَّ الإقبال عليه دوناً عنه وهو الأثير. لا أدري إن كنتم معه لمعرفةِ سرَّ الوافدِ الجديد تطمحون، أم أنَّكم ترضون بما قُسم من أوَّلِ ما رُسِم.. والسلام ؟!!.. فما قولُكم يا كرام ؟!

(2)

عدَّل صاحبُنا من وضعيَّةِ كوفيَّتِه، وشدَّ زنَّارَ قُمبازِه، فتلَ شاربيه –عادةً اكتسبَها من معاشرة القوم– ، أجزل في تضميخهما بعطرٍ باذخ الإيقاع، ومتوكِّلاً انطلقَ إلى دُكَّان المنافس المُضارب. حادث نفسَه وهو في طريقِه إليه، مُجمعاً أمرَه على بذل جهده ليقنعه بضمِّ تجارتيهما معا، عوضاً عن تشرذم الأرزاق، مستحضراً كلَّ براعات اللسان، وقفشاته التي اشتُهر بها سلباً للعقول والأفئدة على سواء.

وصلَ صاحبُنا إلى مقرِّ الخصم المُفترض، يشدُّه من بُعدٍ ولم يقترب أريجٌ ولا أذكى، يَسلبُ اللبيبَ لُبَّه، والأريبَ مكامنَ فطنتِه، فما ان اقتربت خطاه حتى تعلَّقَ ناظراه بكلِّ مبهرٍ ساحر، من جلال تنظيمٍ وبهاءِ ترتيب، كأنَّه إيوانُ الوالي، أو عظمةُ الحكمدار في أُبَّهةِ حكمداريته. فما أن عرضَ له، حتى وجدَ أمامَه شاباً في مثل سنِّه لا يزيد، قفقازي الملامح؛ أزرق العينين، حوَتا زرقةً حدُّها السماء، أبيض ناصعَ البياض كأنَّه البدر إذ تجلَّى قبلةً للنَّاظرين، حتى حسبَه من جند الإنجليز من ملامِحه وإن كان في لباسٍ عربيٍّ مُقصَّب.

وتلاقت العينان، فبادر الشابُ صاحبُنا وهشَّ وبشَّ له مؤهِّلاً مُسهِّلا، واثباً عن كرسيِّه كما الغزال المنسرح حتى يحسب الرائي والسامع أنَّه يستقبل قائمَ المقام لفرطِ ما أجزلَ في استقبالِ ضيفِه زبونِه، وجعلَ يرطنُ بلهجتِه كلمات الترحيب والتَّشريف، وصاحبنا مأخوذٌ بما رأى منه... وسمع. المهم يا سادة، أنَّ التعارفَ تمَّ بين الشابين على أحسن ما يكون، ووجدت الأُلفةُ سبيلَها بينهما وعشعشت، فالأرواحُ – كما تعلمون– جندٌ لله مجنَّدة، وقد كان أن ألقى الله في قلبيهما محبةً يشهدُ عليها أهل ذاك الزمان، فكنت إذا رمتَ الشامي وجدتَه عند المصري، وإذا ابتغيت المصري فإنَّك لابد واجده عند الشامي. أمَّا عن مجالسِ سمرهما فلا تسل، حديثٌ متَّصلٌ لا ينقطع، وودٌّ ووصال لا ينجلي، وإن ما خلا لهما مجلسٌ من عبارتين أثيرتين:

– إيه.. بتقول إيه؟ !!

– ما عم بفهم عليك، شو عم تحكي؟!!

وهو حديثٌ – لو تعلمون– جدٌّ بليغ، حتى أتقن كلٌّ منهما لهجةَ الآخر كأنَّه هو. فما كان بينهما بعد ذلك؟ ، وكيف سرت بينهما الأمور على أرض فلسطين؟ هذا ما سوف تعلمون.. لو تابعتمون.

(3)

وكان أن جمعت بينهما إحدى أُمسيات السمر الحافلة، واللاتي اعتادا فيها تبادلَ المجلسَين، أما مجلسُنا هذا فقد اتَّقدت جذوةُ هنائه عند الشَّامي، فهلمُّوا معي يا سادة نصيخُ السَّمع لما كان بين الصاحبَين الأريبين من طرائف السَّمر، وعابقات الفِكَر.

– تعلم، يحيِّرني أمرُك والله، كيف تركتَ الشَّامَ وخيراتِها – وأنت التاجر ابن التاجر– وحللتَ فلسطينَ بالذَّات!!

– بل عجبٌ سؤلك صاحبي.. أمَّا الشام فهي أرضُ خيرٍ لا يُختلف عليه، رخاؤها يعُم، وأسواقها تلُم، منزلُ كلِّ قاصد، ومنهلُ كلِّ وارد، تراها عامرةَ البنيانِ زاهرة، لا يضاهيها لاكسرى ولا أساورَه، فيها من التاريخ العبق، من كلِّ عابرٍ ومن مرق، والرِّزقُ فيها مواطنُه لا تعد، فكيف يا صاحِ بابن البلد، ومن له فيها الرِّفدَ والسَّند!!

– وطالما هذا حالُ الشام– وأنا أعلم–، فلم ودَّعت خلفك مكامنَ النَّوال والمغنم!!!

– هو سرٌّ جدٌّ خطير، وأنت عنديَ الأثير، فأرهف السَّمع واقترب، أنبئْك خبرَ ذا العجب

– كلِّي آذانٌ صاغية.. فهاتِ ما عندَك يا داهية.

– أما يا صاحبي فإنَّنا لم نُذرء على الأرض آكلين شاربين، كما النَّعم في فيافيها سارحة، والموت موعدُ كلِّ من عليها آفلين، أفلا نعمل ليومٍ تبكي علينا نوائحُه!!.. أمّا أنا فقد رسمت الطريق، والحيدَ عنه لا أطيق، فكان منِّي أن هجرتُ داراً لابد مفارقُها، إلى دارٍ لابد واردُها.

– وكيف ذاك بالله عليك، دُلَّني يدي بزُنَّاريك.

– أفعل، ودون أن تسأل، ألست لي الأخ والخِّل، فاسمع مني ولا تستقل... تركتُ الفرنسيَّ في بلدي ورائي، وتلهَّفت نفسي لأرض الرسالات، جهاداً فيه ما كنت مرائيا ، ولكنَّه العشقُ استوى في قلبي والثَّبات.

– يا الله، وكذا أنا فعلت.

– أعلم، وهذا ما فيك توسَّمت، ألم ترنِ إيَّاك لازمت.. وآثرت!!

– ومن يُطِق حياةً والمسرى أسير، أصدقُك القول أم أُفضي بما شاء القدير؟

– بل أفضِ وإلّا كان الفراق، ألست منِّي الأخ والرُّوح الصِّداق!!

– أجل، فلتعلم يا أخي أنِّي تركتُ ورائي بلاداً الخيرُ شريانها، أنَّى اغترفت فثمَّ الذَّهب، وليس أنفسُ من أبنائها، إذا انتخيتهم ترى العجب. لكنَّ الرُّوح منِّي لم تطق قعوداً وأنا ابن الأزهر، فقررتُ منَّها وصلاً وإن كان على غيرِ مظهر، فلبست رداء التاجر وجعلتُ أُعسعس، علِّي أحظى بما من أجلِّه سعيتُ أحتبِس، وإن شاغلني مالٌ أجمعُه، فعلى نيَّةٍ يعلمها الله إنِّي لمُنفقه

– إذاً.. فقد غَدَوْنا اثنين، فماذا نحن فاعلان يا عين!!

وإن أخبرتك أنِّي أشتمُّ ريحَ خطةٍ متكاملة يا أريب، هلمَّ بها إليَّ ودع عنك ما يُريب

– أمَّا السِّلاح فعندي منه ما يكفي اثنين، والتدريب عليه في الغوطة واسأل شجر الدُّرَّاقَ والتين.

– أمّا السِّلاح فعندي منه ما يكفي اثنين، والتدريب عليه في سينا لا غير، واسأل – إن كنت فاعلاً– صادحَ الطَّير –.

– هاتِ يدك.. الله أكبر ولله الحمد.

– هاكَ يدي.. الله أكبر ولله الحمد.

هذا ما كان من مجلس الصديقين، وما كان بينهما من اتفاق، فإن كنتم يا سادة مُتابعين، فأعلمون.. لنصلَ إلى ذروة السِّياق، قبل أن تُغافلنا الحرب فلا فوت، وما ندري حياةً من موت.

(4)

وقد كان لهما ما أرادا، بل ما خططا له عن سابقِ إصرارٍ وتصميم، فكان التحاقهما بخليَّةٍ مجاهدة تنتمي لفصيلٍ أوحدَ معروف حينَها بأميرِه الثائرِ المجاهد المؤسس لفكر عالمية الجهاد في أرض الإسلام قبل جيفارا ومن يحزنون. الفلسطينيُ الطائر سليلُ الأسرة العريقة، الضَّاربة في جذور الأرض أصلاً ونسباً ومكانة = أولاهما هما بالذات عنايتَه، فأوصى من طرفٍ خفي لأمير الخلية أن لا يعهدَ إليهما بمشترك العمليات الفدائية أبدا، بعد أن أوعزَ إليه الأخير بمتينِ صلةٍ بينهما فاقت رابطة الدَّم وتعدتها للرابطة الأعم والأجل، فجعلت منهما روحاً تسعى في جسدين اثنين، بعثت في نفس الأمير تلكم الرابطة مخافةَ أن يتفانى أحدهما فداءاً للآخر كمن سُلسِلَ بسلاسِلِ الفولاذ وقيل: اسعَ ولا تهب. وعليه؛ فقد حيلَ بينهما وبين تجمُّع، فلم يفتت ذلك في عضديهما أبدا، بل مدَّه فوق المدد مددا، عساها شهادة ينالُ فيها الآخر شفاعة، أو نصر يستوي من بعده اللقاء. فكانت عملياتٌ متناثرة هنا وهناك تقُضُّ منام الأجنبي وتثير جنونَه، يدُ الثوار الضاربة ترصدُهم وتتحيَّنهم أينما ووقتما يحلو لهم، وما استطاعوا لهاتيك الخلايا اختراقاً لا ترهيباً ولا ترغيبا، بعد أن عُبِّئَ الشباب تعبئةً عقائديةً متينة، هيَّج جذوتها جهادٌ على أرضِ الرباط أضرمت فيهم الغضبةَ لله في أرضه المباركة. توالت الأيام وتجارةُ الصاحبين تربو؛ سعةً في المال صُبْحاً، ودرجةً عند الإله رباطاً كلَّما هتفَ داعيَ الجهاد. حتى كانت ليلة، تناهى فيها خبرُ إصابةِ المصري واعتقالِه إلى مسامع خليلِه الشَّامي، فتوقَّدت له نارُ الحشا حتى ما تركت من صبره صبرا، يُحادثُ نفسَه كمن أصابته لوثةُ بترِ عضوٍ من أعضائه، فما هو بطائله وما هو بمستعيضٍ عنه، وما لبثَ أن حزمَ أمرَه، وأعدَّ عُدَّته يتصيَّدُ الأخبار، حيناً بالرِّشوة ما استطاع، وبالدَّهاء والحيلة حينا. حتى أتاهُ اليقين بعدَ لأيٍ وجهد، أنَّ خليله بعد إصابته أُحتُجزَ في البيماريستان العسكري، وعليه من الحراسة شديدها، بعد أن عوَّلَ عليه الأجنبي مصدراً لمعلوماتٍ طالما أعياهم استنطاقَها. وما كان من قفقازي الملامح الأريب إلا أن استعانَ بزيِّ الأجنبيِّ تنكُّراً موفَّقا، ليزور البيماريستان على هيأتِه تلك ويحدد مكانَ صاحبِه، يستقرئُ المخاطرَ ويُقعِّدُ لخطةِ تهريبه والفرار به بناءاً على معطياتٍ حازَها كلها بعينٍ مُدرَّبةٍ أريبة.

وقد كان له ما انتوى وخطط ودبَّر، أن تسللَ إلى المستشفى العسكري ذاك أثناءَ تسلُّمَ مناوبةِ فريق الحراسةِ مكانَ الفريقِ المُناوب، فاعتلى صفصافةً قريبةً سبق له رصدُها ، بعد كمونٍ منتظِر وكوفيَّتَه لا تظهرُ غيرَ عينين زرقاوين نافست زرقتهما زرقةَ سماءٍ صافيةٍ رائقة.

اعتلى الشجرةَ، ووثب إلى غرفة الخليل حاملاً إيّاه- وهو المُصاب- على كتفه، ووجد طريقَه إلى مكمنٍ أعدَّه، وعينُ الله تكلأهما. كلُّ المدينة تناهت إليها أخبارهما، وقصةُ تهريب الفدائيِّ الفدائيَّ صديقَه على كتفه ذات ليلةٍ صيفيَّةٍ رائقة =أضحت مثلاً تتناقلُه الأجيال ليومنا هذا. تتنقَّلُ أخبارَ الدَّمَ الواحد الذي جرى في جسدين وريدُه، أخبارَ السرِّ الإلهي في الأرض المباركة الذي يُحيل المعتادَ مُتفرِّدا، ويستنهضُ مكامنَ البطولة في أسودٍ جُبِلوا عليها وما دروا حتى استُهضوا، أخبار أن الحدود على أعتابها... تراب. بقيَ أن أُعرِّفُكم على بطلي قصتي هذه إن سمحتم لي. فأمَّا المصري... فجدِّي لأبي. وأمَّا الشَّامي... فجدِّي لأُمي. وقد كان لهما أن تزوجا من فلسطينيتين (أُختَي رجال) تتبارى فيهما صفات الأنفة والكبرياء نصيباً مفروضاً لكلِّ فلسطينية.